

وقد حدثنا التاريخ أن هذا دائماً هو أسلوب المستكبرين، وأن الحقّ إذا ظهر من جانب الضعفاء أو أصحاب المراتب الصغيرة أحجم عنه أهل الغرور بأنفسهم والمدلوسون بما لهم من مراتب عليا في مجتمعهم، فتراهم يقولون بلسان حالهم أو بلسان مقالهم مثل ما قال الأولون: أهؤلاء منّا عليهم من بيننا؟)).

وفي هذا أيضاً إرشاد لسنة من سنن ابن عباس في الناس، وهي أن أصحاب المواهب وأهل الذكاء والعاملين المخلصين من شأنهم أن يحسدوا وأن تمتلئ قلوب المتخلفين عنهم ببغضهم والحقد عليهم، وأن على الولاة والرؤساء أن يدركوا ذلك ويحترسوا منه، ولا يدعوا سبيلاً إلى الحاسدين والحاقدين تمكنهم من إقصاء العاملين المخلصين شفاء لما في صدورهم من الحقد، وإطفاء لنيران الحسد التي تأكل منهم القلوب.

وتأمر السورة بعد هذا بإحسان معاملة المؤمنين وتبشيرهم برحمة الله ومغفرته حيث تقول: ((وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم)).

وهذا تعليم إلهي من الله لرسوله في مقابل ما كانوا يراودونه به من طرد المؤمنين وإقصائهم، وإنه لأدب كريم يجب أن يجعله كل مصلح نضب عينيه، وأن يطبقه في معاملته لأصحابه ومعتنقى فكرته، فإن من أحسن ما يملك القلوب اعتراف الكبير بإحسان الصغير، إن له فعل السحر في النفوس، إذ يبعثها على المبالغة في التجويد والإتقان والإخلاص، وعلى العكس من ذلك إذا أنكرت الجهود النافعة، ونُسيت الأعمال الصالحة، وتجاهل الرئيس ما يبذله المرءوسون من جهود؛ فإن ذلك يكسر نفوسهم، ويفتت في عضدهم، ويبدّل لهم بالإخلاص والدأب تهاونا وتراخياً. وأدب آخر في هذه الآية الكريمة هو التوجيه إلى التبشير، والابتعاد عن التنفير، فإن التبشير من شأنه أن يبعث النشاط، ويزيد الطاقة، والتنفير من شأنه أن يهدأ القوى، ويفسد النفوس.